أوروبا تواجه أزمة

رحلة أوروبية

نقص المناعة الأوروبية

افلاس الزعامات

الوحدة مازالت حلما

معركة المارك والفرنك

عملاق من القش

obeikandi.com

رحلة أوروبية

لا أستطيع أن أحصى عدد المرات التى زرت فيها بلادا أوروبية.. أقمت مع أهلها، وتحدثت إليهم، وقرأت كتبهم وصحفهم، وشاهدت تليفزيوناتهم.. وزرت ودرست فى جامعاتهم، وترددت على متاحفهم، وصادقت كثيرين منهم. وطوال أكثر من ثلاثين عاما شاهدت عن قرب كيف تحولت أوروبا من اليأس إلى الأمل.. ومن دمار الحرب إلى نهضة التعمير.. ومن حد الكفاف إلى رخاء الوفرة.. ومن الشك فى الحاضر إلى اليقين فيه.. ومن الحرب الباردة إلى مستقبل مجهول.

وحتى وقت قريب كان كل شئ واضحا.. الأبيض أبيض والأسود أسود. العالم منقسم إلى قسمين: دول رأسمالية تتمتع بالحرية والديمقراطية وتبشر بالعدل والرخاء، أو دول اشراكية تعيش فى ظل نظام شمولى، وتفرض على شعوبها نظاما حديديا صارما.. وبين

obeikandl.com

الكتلتين هوة واسعة من إنعدام الثقة، والخوف، والتهديد بالحرب النووية.. أما بقية شعوب العالم فهى ساقطة من الحساب. يستغلها الطرفان ـ كل بحسب طاقته ولكل بحسب حاجته ـ من النفود والمواد الخام والسيطرة العسكرية والتحكم فى مقدراتها.

وعندما إنهار سور برلين قبل أربع سنوات، إنهارت الحدود والفواصل فى أوروبا، وإنهارت معها تحديدات وأفكار وتصورات كثيرة. وأصبح على المواطن الأوروبى العادى أن يعيد النظر فى كثير من المسلمات والمفاهيم والمعتقدات التى ظلت النظم السياسية، والوسائل الإعلامية، والأزمات العالمية تحقنها فى عقل المواطن ومشاعره.

وكشف سقوط الأنظمة الشيوعية فى شرق أوروبا عن أزمة حقيقية عميقة فى النظام الغربى، بعد أن اتضح أن العداء للشيوعية والخوف من انتصارها كان عاملا أساسيا من عوامل التماسك والتقارب والتضامن بين دول الغرب.. وأن معظم المؤسسات والتنظيمات والأحزاب السياسية قد بنت مواقفها واستمدت سلطتها من قيام هذا الشق العميق بين الغرب والشرق.

وقد انعكس هذا الشعور بالحيرة والإضطراب والتردد على الشعوب فى غرب أوروبا.. فى هذه المرة نشعر أن المواطن الأوروبى لم يعد واثقا من هدفه. وأن الأحزاب السياسية تتخبط إزاء المشاكل المحيطة بأوروبا والعالم. وأن كثيرا من المبادئ والآمال التى نادت بها ـ أيام الحرب الباردة ـ لم تصمد للإختبار حين وضعت موضع

التطبيق. وعلى الرغم من الواجهة البراقة، فإن العلاقات بين الدول الأوروبية وبعضها البعض ليست فى أفضل أحوالها. كما أن العلاقات بين أوروبا وأمريكا تمر بمرحلة مخاض عسيرة، يبدو أن أمريكا تزداد خلالها إنكفاء على ذاتها. أما روسيا فقد صارت عبئا ثقيلا وكما مجهولا فى العلاقات الدولية.

فى هذه المرة أحسست بحجم التغيرات التى طرأت على الأوضاع فى أوروبا.. وهى تغيرات يصعب التنبؤ بمسارها وبنتائجها.. ولكننا سنحاول أن نستقرئ بعض ملامحها.

obeikandl.com

نقص المناعة الأوروبية

ما الذى يجرى فى أوروبا الآن؟

كانت كل التوقعات تشير إلى إن إنهيار الشيوعية، ونهاية الحرب الباردة، وخفض الإنفاق العسكرى، وسقوط الحواجز السياسية والأيديولوچية . . سوف يدفع أوروبا إلى تحقيق حلمها القديم فى قيام وحدة أوروبية قوية، تستطيع أن تلعب دورا رئيسيا فى قيادة العالم وصياغته من جديد. وظن كثير من مفكريها وكتابها السياسيين أن الدور الحضارى الذى استولت عليه أمريكا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، سوف يعود إلى أوروبا أو أنها على الأقل سوف تستغنى عن مظلة الحماية العسكرية الأمريكية التى فرضت على أوروبا الإنصياع للسياسات الأمريكية طوال النصف الثانى من القرن العشرين.

obeikandl.com

ولكن التطورات التى حدثت جاءت مغايرة لكل هذه التوقعات، ومخيبة لآمال الكثيرين.. واتضح أن حجم المشاكل التى أسفر عنها إنهيار أوروبا الشرقية وتفكك الإتحاد السوفيتى، كانت أكبر وأخطر مما قدر الكثيرون.. وخرجت من تحت ركام الأنظمة المتهاوية، أمراض وأوجاع إقتصادية وإجتماعية ونفسية، زحفت إلى مجتمعات الرخاء والوفرة فى أوروبا الغربية.. تفجرت معها صراعات وتناقضات جديدة لم تكن فى الحسبان.

ومن الواضح أن سنوات الرخاء فى أوروبا الغربية، قد ساعدت على نقص المناعة الروحية والعقلية لدى الشعوب الأوروبية، وأدت نهاية الحرب الباردة إلى إنهيار القدرة المناعية فى الجسم الأوروبى، بعد أن ضاع هدف أساسى من الأهداف التى ساعدت على استمرار الوحدة والتكامل.. وهو الوقوف صفا واحدا فى وجه العدو الشيوعى!

لقد ظلت أوروبا الغربية تكافح أربعين سنة لكى تخترق جدران الستار الحديدى، وظلت تمنى شعوب أوروبا الشرقية بجنة الرأسمالية والإقتصاد الحر والمساعدات الغربية بغير حدود.. وحين إنهارت الحواجز، وإنفتح الستار عن فقر شديد، وخراب شامل، وتخلف حضارى وإنهيار إقتصادى وتلوث بيئى.. بدأت شعوب الدول الشيوعية سابقا تطالب بتحقيق الوعود التى ظلت تسمعها وتتمناها.. كانت المفاجأة مذهلة وأكبر مما تصور الكثيرون.. وأدركت دول أوروبا الغربية أنها وعدت بما لا تطيق إنجازه، وأن سداد الفاتورة أكبر من طاقتها الإقتصادية والنفسية والإجتماعية.

والآن. . . يتسلل الخوف إلى قلوب الأوروبيين كما يتسلل مرض الإيدز دون إنذار أو إشعار مسبق. . الخوف من الحرب الناشبة فى البلقان دون نهاية والتى أثبتت عجز أوروبا عن مواجهتها، والتى يخشى الأوروبيون أن يمتد شررها إلى أجزاء أخرى فتأتى على الأخضر واليابس، والخوف من الأجانب ومن حركة الهجرة الواسعة التى تهدد نسيج المجتمعات الأوروبية. . والخوف من تفجر الصراعات العرقية والعنصرية. . والخوف من سيطرة اليمين المتطرف على الساحة السياسية. . والخوف على الوحدة الأوروبية والتوجس من نتائجها. .

obeikandl.com

افلاس الزعامات

منذ سقطت الأنظمة الشيوعية فى أوروبا، اهتزت كثير من المفاهيم السياسية وتغيرت نظرة الأوروبيين إلى أنفسهم.. لم تعد أوروبا مجرد كتلة أو جماعة من الدول الغنية الصناعية المتقدمة التى تواجه تكتلات أخرى، ولم تعد مجرد امتداد لأمريكا وتابع لها.. بل اختلفت الأوضاع والحسابات اختلافا شديدا، انعكست آثارها على الأحزاب والقوى السياسية التى سيطرت على الحياة فى أوروبا طوال السنوات الأربعين الماضية.

أدت التطورات الجارفة التى وقعت إلى تراجع النظرة الأمنية أو الإستراتيجية القائمة على التوازن العسكرى وسباق التسلح، لكى تحل محلها نظرة أمنية أخرى قائمة على التفوق الإقتصادى والتكنولوجى والمحافظة على مستويات الرخاء والتقدم، ووقف الزحف الجديد القادم من الشعوب الأوروبية المتخلفة والفقيرة فى

obeikandi.com

الشرق، ومن شعوب الدول النامية والمتخلفة فى الجنوب أو ما يطلق عليه دول العالم الثالث.. وأيضا لمواجهة المنافسة الإقتصادية التى سوف تزداد حدة فى المستقبل من جانب التكتلات الإقتصادية فى القارة الأمريكية من ناحية وفى اليابان وآسيا من ناحية أخرى.

وحتى هذه اللحظة، فإن الخطر الحالى والحاد الذى تستشعره أوروبا هو الخطر الأول.. خطر المحافظة على وحدة أوروبا الإقتصادية وما حققته من إنجازات، فى مواجهة الدول الأوروبية المجاورة بما فى ذلك روسيا ودول الكومنولث الجديد التى توشك أن تغرق أوروبا كلها فى بحر من المتاعب السياسية والإقتصادية والعنصرية.. إلى جانب الملايين من المهاجرين واللاجئين من شعوب إفريقيا وآسيا، الذين يبحثون عن لقمة العيش هربا من المجاعات والحروب والقمع السياسى والإقتصادى.

ويبدو أن الأزمة التى تواجهها الأحزاب السياسية الحاكمة فى أوروبا، تكمن فى عجز زعاماتها عن الخروج من دائرة المشاكل القديمة التى اعتادوا مواجهتها فى السبعينات والثمانينات.. وقد انعكس ذلك بصورة واضحة فيما حدث فى فرنسا وإيطاليا وبريطانيا وألمانيا وأسبانيا من تغيرات سياسية.. حيث تواجه أحزابها الكبرى أخطار الفضائح والانقسامات وهبوط الشعبية والرفض من جانب شعوبها..

فقد خرج الإشتراكيون من الحكم فى فرنسا بالفعل، وفقد أقرانهم

الأغلبية فى أسبانيا. . أما فى إيطاليا فقد سقطت النخبة الحاكمة التى سيطرت على الحياة السياسية فيها، فى دوامة من فضائح الرشوة والفساد والتحالف مع المافيا. وفى بريطانيا، يتدهور وضع جون ميجور يوما بعد يوم فى اتجاه السقوط بينما تمزق الخلافات حزب المحافظين، وفى ألمانيا يزداد تخبط حكومة كول وتتسع دوائر المعارضة لسياساته. .

يجرى ذلك كله وسط حالة من الركود الإقتصادى وارتفاع نسب البطالة، وفشل الجماعة الأوروبية فى تحقيق أهدافها. . وعودة الإتجاهات القومية والخلافات التاريخية إلى السطح من جديد!

obeikandl.com

الوحدة مازالت حلما

قبل عامين شهدت ندوة فى الاسكندرية حول العلاقات بين العالم العربى وأوروبا . . كان ذلك فى أعقاب حرب الخليج، وفى وقت ارتفعت فيه حرارة الآمال بقيام أوروبا الموحدة بعد أن تم الإتفاق على معاهدة «ماستريخت»، ولم يبق غير التصديق عليها.

وكثر الحديث فى ذلك الوقت عن عالم التكتلات الكبيرة، التى لن يبقى فيها مكان للصغار والشراذم والمتخلفين. وفى هذه الندوة أعلن أحد الباحثين الأوروبيين أن قيام أوروبا الموحدة سوف يجعلها فى وضع تستغنى فيه عن التودد إلى العالم الثالث ـ بما فى ذلك العالم العربى ـ بحثا عن مواده الخام. لأن العالم الثالث لن يبقى أمامه من خيار غير أن يضع نفسه تحت أقدام الدول الصناعية المتقدمة فى الغرب. . سوف تكف الدول النامية عن «ابتزاز» المعونات والقروض. ولن تكون هناك ضغوط من جانب روسيا أو غيرها. .

obeikandl.com

لأن الدول الصناعية الكبرى هى التى ستحدد قوانين اللعبة كلها. ولن يكون هناك بقاء إلا للأصلح والأقوى والأغنى والأكثر تقدما. أما الدول العربية ودول العالم الثالث، فلن يكون أمامها إلا أن تواجه مصيرا مظلما!!

كان العرض مستفزا.. والأرقام ساخنة والحجج بليغة قاطعة، إلى درجة أذهلت الحاضرين وأوجعتهم.. وربما أيقظتهم؟

وسألت الباحث الأوروبى يومها: ماذا سيكون بوسع أوروبا أن تفعله، إذا تعرضت لموجات بشرية من اللاجئين القادمين من الدول الفقيرة فى العالم الثالث، تجتاحها كما اجتاحت زوارق المهاجرين الفيتناميين شواطئ الدول الآسيوية المجاورة هربا من الفقر والجوع والقمع؟ هل يمكن أن تغلق أوروبا الباب على نفسها وتفرض ستارا حديديا جديدا يحول بينها وبين الشعوب الفقيرة المجاورة فى الجنوب والشرق؟

لم تكن أوروبا قد بدأت تحس بتقلصات الآلام الإقتصادية التى بدأت تمغص جسم الدول الأوروبية التى خرجت من أسار الشيوعية ولا بالتحديات التى ستواجهها من أمريكا واليابان.. كان الشعور بالزهو يملأ أعطاف أوروبا الغربية، بما حققته من نجاح إقتصادى وسياسى، وما توشك أن تحققه من وحدة أوروبية. وكانت نشوة الإنتصار على النظام الشيوعى أقوى من أن تفتح العيون على حقيقة المشاكل التى يتعين عليها مواجهتها.. وبمرور الوقت ذهبت السكرة وجاءت الفكرة وإستيقظ الأوروبيون من حلم ليلة صيف لم يدم طويلا.

فقد جاء رفض الشعب الدانمركى فى الإستفتاء الأول لإتفاقية ماستريخت، ومقاومة بريطانيا كثيرا من البنود التى قد تؤدى إلى التنازل عن جزء من السيادة وتراجع فرنسا عن اتفاق يسمح بحرية الإنتقال والسفر داخل الحدود الأوروبية، وما أدى إليه ذلك من التخلى عن كثير من الأهداف، بمثابة نزول من السماء إلى أرض الواقع.. وأخذت المشاكل والأزمات المستعصية تظهر على حقيقتها!

obeikandl.com

معركة المارك والفرنك

حين صدق مجلس العموم البريطانى على إتفاقية «ماستريخت» كانت معظم بنود الإتفاقية قد تم تعديلها وتخفيفها، بحيث لم يبق منها غير هيكل عظمى متآكل.. وبعدها بساعات انفجرت حرب العملات الأوروبية، ودخل الفرنك الفرنسى معركة طاحنة ضد المارك الألمانى، خرج منها مثخناً بجراح شديدة قد لا يبرأ منها بسهولة.

وبعدما كان من المتوقع أن تبدأ أوروبا مرحلة توحيد العملة ـ وهى أهم مرحلة على طريق الوحدة الأوروبية ـ أصبح الأمل مقصورا على المحافظة على النظام أو الآلية التى تضمن تعويم العملات الأوروبية والمحافظة على هامش معقول لحركاتها، بما يحول دون انهيارها.

ومنذ أخرج الدانماركيون أنفسهم من الإلتزام بنظام العملة الأوروبية الموحدة، وبسياسة دفاعية مشتركة، وانضم البريطانيون

obeikandi.com

إليهم، ثم اضطرت إيطاليا وأسبانيا تخفيض عملاتها تحت ضغوط شديدة، فإن الضربة التى أصابت السياسات المالية والإقتصادية لخطوات الوحدة الأوروبية، كشفت عن عمق الخلافات بين دول الجماعة الأوروبية. واتضح أنه كلما إزدادت المتاعب والضغوط الإقتصادية ازداد الإندفاع نحو البحث عن المصالح القومية الخاصة، على حساب الهدف الأكبر وهو قيام أوروبا الموحدة.

والمشكلة هى أنه من الصعب الفصل بين متطلبات الوحدة الإقتصادية والمالية، وبين شروط الوحدة السياسية.. بحيث لم يبق فى الواقع العملى غير «أوروبا متعددة الأطراف» وليس «أوروبا على طريق الوحدة». لقد تغيرت الأولويات بالنسبة لعديد من الدول الأوروبية بعد إنهيار النظام الشيوعى سواء بالنسبة لألمانيا أو بالنسبة لفرنسا.. وفى إطار إستعادة الوحدة الألمانية، وجدت ألمانيا نفسها مطالبة بتوجيه معظم استثماراتها إلى الأقاليم الشرقية الألمانية.. وازداد اهتمامها بتحقيق الاستقرار والرخاء فى بولندا والمجر وجمهورية التشيك ربما بأكثر مما تهمها دول أخرى فى الجماعة الأوروبية. ومع رسوخ وضع ألمانيا فى القارة الأوروبية تفتحت شهيتها لتدعيم دورها السياسى على مستوى أوروبا والعالم. وفقدت فرنسا بذلك كثيرا من نفوذها على ألمانيا وعلى الجماعة الأوروبية.. وفى المعركة الأخيرة بين المارك الألمانى والفرنك الفرنسى، رفضت ألمانيا أن تتراجع عن سياساتها المالية وتوافق على إجراء خفض كبير فى أسعار الفائدة، لكى تساعد على إنقاذ الفرنك الفرنسى من الانهيار.. وتبادلت الدولتان لأول مرة إتهامات علنية، بعد أن

رفضت فرنسا تخفيض الفرنك ورفضت ألمانيا إخراج المارك من سلة العملات الأوروبية وأيدتها دول المجموعة فى ذلك.

غير أن أسوأ ما كشف عنه وهم الوحدة الأوروبية، هو عجز أوروبا سياسيا وعسكريا عن مواجهة الأزمة الطاحنة التى نشبت فى يوغوسلافيا سابقا.. وما أسفرت عنه من مآسٍ سياسية وإنسانية!!

obeikandl.com

عملاق من القش

ربما استطاعت أوروبا أن تتغلب على مصاعبها الإقتصادية وتستعيد مع بداية القرن الحادى والعشرين بعض آمالها الكبرى فى قيام وحدة سياسية من نوع ما.. ولكنها على الأرجح لن تستعيد بسهولة احترامها لنفسها أو إحترام العالم لها، بعد أن فقدت مصداقيتها فى الأزمة الدامية التى التهمت البلقان، وسمحت للفاشية الصربية أن تمزق أوصال البوسنة والهرسك وأن ترتكب من الجرائم العنصرية ما أقسمت أوروبا على منع حدوثه منذ سقوط النازية وانتحار هتلر.

وخلف نيران المذابح والمعارك الدامية فى يوغوسلافيا سابقا تستعر خلافات أوروبية عميقة.. وضعت فرنسا فى مواجهة ألمانيا. وبريطانيا فى مواجهة فرنسا. وأمريكا فى مواجهة أوروبا. وذبحت كثيرا من المبادئ الأخلاقية التى قامت عليها أوروبا فى حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وأضاعت الأمل فى صياغة سياسة أوروبية

obeikandi.com

موحدة تجاه القضايا العالمية، تعطى لأوروبا دورا حضاريا ودوليا مستقلا عن أمريكا.

وقد أثبتت المواقف الفرنسية والبريطانية المتخاذلة إزاء أحداث البوسنة أن أوروبا ليست أكثر من عملاق من القش، وأن حلف الأطلنطى لا جدوى منه، وأن عجرفة فرنسا وضعفها، ودهاء بريطانيا والتواء سياساتها ـ وهى نفس الأسباب التى قادت إلى الحرب العالمية الثانية ـ لم تساعد على توحيد الإرادة السياسية الأوروبية فى مواجهة عدوان صارخ يقع داخل الحدود الأوروبية.

وها هى أوروبا تفعل كما فعلت مع هتلر فتوافق على مكافأة المعتدى، وتعترف بنتائج العدوان الذى شنه الصرب والكروات ضد البوسنة، وتضغط على المسلمين للتخلى عن أراضيهم والقبول بتقسيم البوسنة، وتقسيم سراييفو. وهى أوضاع يتفق المراقبون على أنها ستظل قنبلة زمنية قابلة للانفجار فى وسط أوروبا حتى وأن اضطر مسلمو البوسنة إلى القبول بها..

ويتفق محللون كثيرون على أن مخاوف فرنسا وبريطانيا من تسلل النفوذ الألمانى وتدعيمه فى أوروبا الشرقية ووسط أوروبا هو الذى أدى إلى انحياز فرنسا وبريطانيا إلى موقف الصرب. وقد بدأ الإنشقاق الأوروبى يتخذ شكلا خطيرا حين بادرت ألمانيا فى عام ١٩٩١ إلى الاعتراف مبكرا بسلوفينيا وكرواتيا. وعارضت بريطانيا وفرنسا هذه الخطوة بحجة عدم إغضاب الصرب. وحين طالبت ألمانيا بتأييد من أمريكا رفع الحظر عن السلاح لمسلمى البوسنة رفضت فرنسا وبريطانيا بحجة أن ذلك قد يطيل أمد الحرب.

وبينما يزداد الأمريكيون اقتناعا بضرورة ترك أوروبا للأوروبيين، وما يمكن أن يترتب على ذلك من تخفيض الإلتزامات العسكرية الأمريكية.. فإن الحكومة البريطانية لم تجد ما تغسل به يديها من الجرائم التى ارتكبت فى البوسنة تحت سمع وبصر اللورد أوين وقواتها ذات المهام الإنسانية التابعة للأمم المتحدة إلا أن تقوم بعملية إنقاذ لطفلة بوسنية.. طفلة واحدة أو عشرة أو عشرين من بين ٤٠٠ ألف جريح وقتيل وأكثر من مليونى لاجئ ومشرد.

وفى أوروبا لا أحد يلوم العالم الإسلامى لأن أحد لايأخذ العالم الإسلامى فى الحسبان.. ولكن الأوروبيين يدركون أن الفاتورة التى سيدفعونها نتيجة السماح بالإغتصاب والعدوان ستكون باهظة الثمن. وربما كانت أزمة البلقان هى التى تضع النهاية المحتومة لأى أمل فى وحدة أوروبية سياسية فى القريب.

[redacted]

openkandil.com